نظرية التواصل في رسائل الجاحظ في ضوء نظرية جاكبسون

م.د. محمود كاظم موات

كلية الإمام الكاظم للعلوم الإسلامية الجامعة فرع ذي قار

The Theory of Communication in Al-jahez Letters under the theory of Jacobson

D.R Mahmood kadim mawat algezzy

الملخّص:

يتناول هذا البحث نظريَّة التَّواصل قراءة في رسائل الجاحظ وفق الشبكة التواصلية التي قدرها جاكبسون وتطويع أدوات هذه النظرية وانصهارها ضمن نص تراثي، بعد أن كان هذا النص التراثي سجين المنطلقات البلاغية التقليدية، فارتأينا في هذا البحث العودة للتراث العربي بعيون المنهج الغربي، بعد أن شهدت العلوم المعرفيَّة ازدهاراً كبيراً نتيجة العمل الجادِّ في شتى حقولها، وقد واكب علم اللِّسانيَّات ذلك الازدهار بما شهده من بحوث مستمرَّة حاولت جاهدة أن تقوِّم مسيرته؛ تجلَّت في علوم الرِّياضيَّات، والفلسفة، والفلك، والاتِّصالات السِّلكيَّة واللاسلكيَّة، فبرز في هذا المجال عالم اللُّغة الرُّوسيّ الشَّهير (رومان جاكبسون) الَّذي تميَّز بما وصل إليه؛ إذ حدَّد جوهر التَّواصل اللِّسانيِّ بأركانه السِّتة، ووظائفه السِّتِّ، ومفهوم الوظيفة المهيمنة، وما لها من مهمَّة في توجيه العمل الأدبيِّ.

Abstract:

This research deals with the theory of communication when reading in big eye messages according to the communicative network of Jacobson and adapt the tools of this theory and melting within the Heritage text، after that this was a traditional text prisoner traditional rhetorical premise، Verona in this research back to the Arab heritage through the eyes of the Western approach، having seen the science cognitive gangbusters as a result of the hard work in various fields، has been accompanied by linguistics that prosperity as witnessed by the continuous research tried very hard to do his career; Manifested in mathematics ،philosophy ،astronomy، telecommunications، demonstrated a in this world famous Russian language area (Roman Jakobson)، which featured reached; they select the essence of communication lingual six branches، and functions of the six، and the concept of a dominant position، and its mission in guiding literary work.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد واله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد...

فقد بنيتْ الدراسات اللسانية الشكلية في القرن العشرين على مبدأ طالما تردد ذكره في ثنايا البحوث والدراسات اللغوية – دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها– إلا أن التطور الحاصل في ميدان

البحث اللغوي، أثبت عدم جدوى هذه النظرية، فتعالت صيحات الدارسين من مختلف أنحاء العالم داعية إلى ضرورة تجاوز هذه المقولة، والنظر إلى اللغة بوصفها وسيلة أساسية في التواصل الاجتماعي، وإذا كانت هذه هي وظيفتها الجوهرية فإن هذا لا يلغي الوظائف الأخرى التي تؤديها، كأن تكون وعاء للفكر، أو أداة للتعبير عما يختلج في النفس[١].

عني الباحثون بدراسة هذه الوظائف قديماً وحديثاً، ولعل أشهر اللسانيين المحدثين الذين تناولوا هذه القضية العالم الروسي (رومان جاكبسون) الذي يرى أن اللغة هي وسيلة التواصل الإنساني، ولا يتحقق هذا التواصل إلا من خلال توافر العناصر الآتية: مرسل، مرسل إليه، مرسلة لغوية، إقامة اتصال، لغة مشتركة[٢] نقدم هذه العناصر وما ينجم عنها من وظائف، في رسم بياني متكامل، يكون على الشكل الآتي:

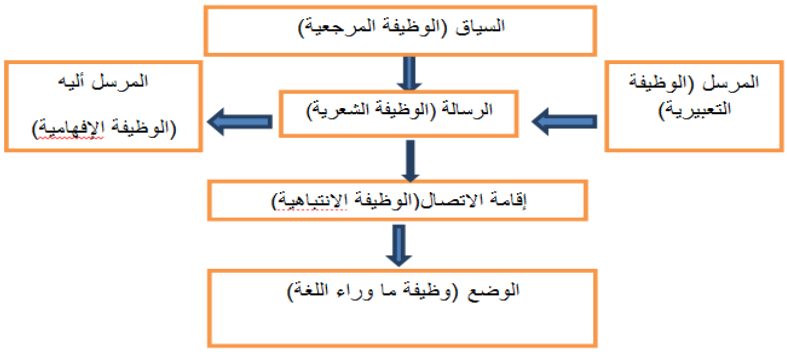

نحاول في هذا المستوى من التحليل التداولي إسقاط هذه الترسيمة التواصلية على نصوص رسائل الجاحظ باعتبار هذه النصوص التي بين أيدينا تندرج ضمن النصوص العربية القديمة التي تتميز بطابع لغوي خاص، وهو ما يسهم في الكشف عن وجود أدوات أخرى للتماسك النصي لم تشر إليها الدراسات اللسانية الحديثة، ومن المؤكد أن جهود اللغويين العرب القدامى قد أسهمت بشكل واضح في إظهار بعض هذه الأدوات، وسوف تتطلع؛ لأن هذه الدراسة إلى الاستفادة من هذه الجهود. لنكشف شتى الوظائف التي تؤديها؛ هذه البنيات السردية المتجاورة، ما هي إلا دال قاصد يعبر عن فلسفة الجاحظ، وقد اتخذ الجاحظ رموز اللغة غطاءً ساتراً يبوح من ورائه بكل ما يختلج في نفسه من معاناة وغربة واضطهاد. فتطويع الأدوات المنهجية الغربية في مقاربة نصٍّ تراثي فإنها لا تبرح – في آخر الأمر– هذا الهمَّ الفكري والنقدي القائم ألا وهو العودة إلى التراث بعيون

المنهج الغربي. هذه المحاولة إذن امتداد لمسار طويل من الكتابة النظرية والإسهامات التطبيقية التي سعت إلى إعادة التفكير في المسألة التراثية وما تطرحه من إشكاليات وأسئلة.

وظائف اللغة في رسائل الجاحظ على وفق الشبكة التواصلية التي قدرها جاكبسون:

إنَّ الوظيفة التَّواصليَّة لم تتَّخذ موقعها من البحث اللُّغويِّ إلاَّ عندما فرَّق سوسور بين علم اللُّغة وعلم لغة الكلام في إطار الأساس المنهجيِّ لعلم اللُّغة الحديث، إذ قال: «اللُّغة والكلام... يعتمد أحدهما على الآخر، مع أنَّ اللُّغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكنَّ اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميِّزين تماماً»[٣]. فاللُّغة بحسب فهمه نسق سابق في وجوده استخدام على الكلمات والممارسات العمليَّة الَّتي هي تلفُّظ فرديٌّ أو كلام؛ أي إن اللغة هي القوانين والأنظمة العامَّة الَّتي تحكم عمليَّة إنتاج الكلام من دون أن توجد جميعاً إلاَّ بوصفها بنى مكتوبة على صفحات كتب اللُّغة، في حين أنَّ الكلام هو التَّطبيق الفعليّ لتلك القوانين والقواعد[٤]، فأصبح أيُّ حديث عن اللُّغة من دون الاهتمام بالموقف التَّواصليِّ لا معنى له؛ وبالتَّالي أصبحت الوظيفة التَّواصليَّة إطاراً عامَّاً تتحرَّك ضمنه بقيَّة وظائف اللُّغة.

فعمليَّة التَّواصل الَّتي بدأت مع (كلود شانون_١٩٤٨م) عالم الاتِّصالات الأمريكي بغية تحسين مردوديَّة الاتِّصالات البرقيَّة الَّتي تتمُّ عن بعد للحصول على اتِّصالات مضمونة وخالية من التَّشويش؛ لم تلبث أن تطوَّرت بسرعة على يدِ العالم اللُّغويّ (رومان جاكبسون) في بداية الستِّينيَّات من القرن الماضي، إذ حدَّد جوهر التَّواصل اللِّسانيّ، وجعله قائماً بستة عناصر؛ هي على التَّوالي:

١_ **الوظيفة التعبيرية (Emotive)**: تعبر هذه الوظيفة عن ذات المرسل ومشاعره، كما تكشف عن حاله وعن مقاصده ومواقفه من مختلف القضايا التي يعالجها. إن هذا الطرف المرسل للخطاب يشكل ذاتا محورية في إنتاجه فتصبح اللغة موجوداً بالفعل بعد أن كانت موجوداً بالقوة[٥]، يطلق بعض الدارسين على هذه الوظيفة (الوظيفة الانفعالية)[٦].

أما إذا انتقلنا إلى ظهور الوظيفة التعبيرية في رسائل الجاحظ، فأنها تمثل مرآة عاكسة لفكره ومواقفه في الحياة؛ لكونه من أصحاب المذهب الكلامي ومنهجه في الحياة يقوم على محاربة الأوضاع الفاسدة التي تفشت في مجتمعه، أنه يطمح إلى تغيير واقعه، ولا يجد سبيلاً إلى ذلك غير اللجوء إلى عالم الكتابة المؤثرة في قلب المتلقي، حتى صار كاتباً موسوعيّاً، إنك لا تكاد تلتمسه في أيَّة ناحية من نواحي المعرفة إلاّ وجدته شاخصاً أمامك بقوّته، وعبقريته نافذاً إلى أعماقك بذكائه وألمعيّته، يستهويك علمه، ويقرّبك منه، ويبهرك عقله، وتدهشك إحاطته، وتضحكك دعابته، وتروقك

سخريته، وتهزّك حكمته، وتخلب لبك فلسفته، ثم هو بعد ذلك يأخذك في متاهات من واسع معرفته، وغزيز ثقافته، فلا يسعك إلاّ أن تتابع المسير معه، وأنت مأخوذ بكل ما يعرض عليك من رسوم وصور، مفتون بكل ما ينقله إليك من علم وأدب. فإذن الجاحظ لا يعد منتج الرسائل أو باثها فقط، بل أنه أحد مؤسسي هذا الفن، وهو المبدع لهذا اللون النثري الجديد. وقد شكلت رسائله أنموذجاً في الكتابة النثرية، احتذى به الكتاب من بعده، وهذا يعني ألماعه الواسع باللغة العربية وقوانينها، وأنه أديب بارع متفاعل مع التراث العربي تفاعلاً إيجابياً، فحفظ القرآن الكريم، والشعر العربي القديم، والأمثال والحكم.

وتبرز هذه الوظيفة في رسائله الآتية:

أ- رسالة (الجد والهزل) «**... وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الإخوان؟ ومتى صار تفضيل الحَبِّ وتقريظ الثمر يورث الهجران؟ ومتى تميّزوا هذا التّميّز؟ وتهالكوا هذا التهالك؟ ومتى صار تقديم النخلة ملة؟ وتفضيل السنبلة نِحلَة؟ ومتى صار الحكم للنعجة نسباً وللكرمة صهراً، ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة ويحدث عنها حميّة وقد كنا نعجب من حرب البسوس من ضرع ناب، ومن حرب بعاث في مِخرف**[٧] **تمر، ومن حرب غطفان في سبق دابة، فجئتنا أنت بنوع من العجب أبطل كل عجب، وآنسنا بكل غريب، وحسّن عندنا كل قبيح، وقرب عندنا كل بعيد...**»[٨].

ب- رسالته (مناقب الترك): «**... ونحن قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام، وشعورٌ وهام، ومناكب عظام، وجباهٌ عراض وقصر**[٩] **غلاظ وسواعد طوال... ونحن أكثر مادة، وأكثر عدداً وعدّة، ولو أن يأجوج ومأجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد، فأما الأيد وشدّة الأسر، فليس لأحدٍ بعد عادٍ وثمود والعمالقة والكنعانيين مثل أيدنا وأسرنا، ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة واحدة، لكنا أكثر العيون، وأهول في الصدور. ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا، علمت أننا لن نُخلق إلاّ لقلب الدُّول، وطاعة الخلفاء، وتأييد السلطان، ولو أن أهل التبت ورجال الزَّابج**[١٠] **وفرسان الهند، وحلبة الرّوم هجم عليهم هاشم بن اشتاخنج لما امتنعوا من طرح السلاح والهرب في البلاد...**»[١١].

ج _ وفي رسالته (نفي التشبيه) «**فواجبٌ أن ينكشف قناعه، ويظهر سرّه، ويبدو مكنونه. وقد أطمعني فيهم مناظرتهم لنا ومقايستهم لأصحابنا، وقد صاروا بعد السبّ يحفّون وبعد تحريم الكلام يجالسون، وبعد التّصام يستمعون وبعد التلجلج يدارون، والعامة لا تفطن لتأويل كفها ولا تعرف مقاربتها. فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من قبلها، وأصغت لما ترى من استماعها...**»[١٢].

نلاحظ من خلال الأمثلة السابقة بروز الوظيفة التعبيرية في نصوص الرسائل المختارة وقد جسدت هذه الانفعالات الوسائل اللغوية الآتية:

- الإستفهام الذي لا يخلو من التعجب في قوله:

_ متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الإخوان؟

_ ومتى تميّزوا هذا التّميّز؟

_ وتهالكوا هذا التهالك؟

_ ومتى صار تقديم النخلة ملة؟

_ وتفضيل السنبلة نِحلَة؟

_ ومتى صار الحكم للنعجة نسباً وللكرمة صهراً؟

_ ومتى تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة ويحدث عنها حميّة

- الشرط: في قوله:

_ لو أن يأجوج ومأجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا...

_ولو أن خيول الأرض وفرسان الأطراف جميعها جمعوا في حلبة واحدة لكنا أكثر العيون...

_ ولو أن أهل التبت ورجال الزابج وفرسان الهند وحلبة الروم هجم عليهم هاشم بن اشتاخنج لما امتنعوا...

- التقديم والتأخير: في قوله:

_ وقد صاروا بعد السب يحفون_أصل الجملة_ وقد صاروا يحفون بعد السب.

_ وبعد تحريم الكلام يجالسون_أصل الجملة_ يجالسون بعد تحريم الكلام.

_ بعد التّصام يستمعون_أصل الجملة_ يستمعون بعد التصام.

وبعد التلجلج يدارون _أصل الجملة_ يدارون بعد التلجلج.

نلحظ إن الجاحظ في رسائله قد جاء بأساليب متعددة للتعبير، منحت النصوص سمة تعبيرية، وقدرات تأثيرية، فغدت رسائله بنى متماسكة تلاحم فيها الشكل والمضمون على وفق موضوع الرسالة. وقد تعددت الأساليب التركيبية في رسائله ما يعكس إمكانياته اللغوية، وقدرة استعمالاته تنسجم ومقتضيات الرسالة التي جسدت إمكاناته التعبيرية الواضحة من خلال استعمال المفردات المناسبة «وربط الكلمة الحية القوية بأختها، ليتهيّأ من المركب طريقاً في التفكير»[١٣]، فالأثر الأدبي يرتبط قسراً بفاعلية اللغة[١٤]، وتنوع التراكيب اللغوية له القدرة على إثارة انفعالات متميزة لدى

المتلقي، وقد اختلفت إمكانات التراكيب الواردة في النصوص، إذ كشفت مهارة الاختيار لتأدية المعنى بعناية، فتغير الأنظمة التركيبية في النص يتبعه تغير في الدلالة يدل على مراس كاتبها، فمثلاً عندما يستخدم أسلوب الاستفهام_كما في المثال أعلاه رقم أ_ نلحظه قد خرج إلى التعجب، والتعجب يكون استعظاماً لأمر قل نظيره فيولد الاندهاش، وتوظيف أسلوب الاستفهام للتعبير عنه يعزز الدلالة، فالجاحظ يستفهم متعجباً من الزيات أن يكون تفضيل النخل على الزرع سبباً في عداوة الإخوان، وهو أكثر سخافة من حرب البسوس، أو حرب داحس والغبراء، وهذا التعجب ممزوج بتهكم واستهزاء؛ لأن هذه الحالات لا تحتاج إلى جواب لأنها معروفة. لكن الجاحظ عندما يسخر الشرط داخل نسيج النص نجده يولد انسجاماً دلالياً وإيقاعياً بين الشرط والجواب، وحمل في طياته أبعاداً إيحائية –كما في المثال أعلاه رقم _ ب_ تنسجم والموقف الذي يعيشه الكاتب موقف الافتخار والتعظيم والشجاعة للعرب.فتكرار (لو) وهي «**حرف امتناع لامتناع، فكأنه امتنع وجود الثاني لعدم وجود الأول**»[١٥]، قد فتح باب الصراع بين جانبين متضادين (العربي/غير العربي) كما فتح باب التقابل بين ثنائية الأذى (الردى) وبين العز(الكبر)، وفتح أيضاً باب التضاد بين الفعلين وتكررت لتعبر عن الموقف النفسي الذي يعيشه الكاتب لأن «الموقف هو الذي يفرض على المرء أن يختار الأسلوب، والأسلوب بحد ذاته قادر على أن يبلور الموقف»[١٦]، فإذن هذا التداخل في شبكة العلاقات الدلالية المهيمنة على النص قد عزز الوظيفة التعبيرية لدى الكاتب.

نلحظ أيضاً_ في المثال أعلاه رقم _ج _ وظف أسلوب التقديم والتأخير، إذ قدم (شبه الجملة) على الفعل المضارع المرفوع بثبوت النون في محل رفع خبر لفعل الناقص (صار)، فيصبح الكلام (صاروا يحفون...) و(صاروا يجالسون...) و(صاروا يستمعون...) و(صاروا يدارون...) فالجاحظ في هذا الانزياح الأسلوبي أراد إثبات الفعل الإيجابي لهؤلاء (يحفون، يجالسون، يستمعون، يدارون) بعد أن نفي تشبيههم.

وقد راعى التقديم والتأخير في هذا النص الفاصلة، مما أحدث تقابلاً إيقاعياً، جعل المتلقي أكثر تشويقاً إليه، فضلاً عن ذلك ساعد في إيصال موضوع الرسالة (نفي التشبيه) بطريقة أكثر هدوءاً وتأثيراً عن طريق تسلسل هذه المقاطع المتقابلة وبثها إلى المتلقي على مراحل تتضمن وصولها إليه بوضوح وتركيز في جوّ أضفت عليه هذه التناظرات موسقة تشعر السامع بالجمالية الصوتية التي تنظم الكلام.

نلحظ أن الجاحظ قد عبر عن فلسفته في الحياة التي تخص مجتمعه من دينية واجتماعية وأدبية بأسلوب نحوي سهل، وباعتماد بنية التوازي في تركيب الجمل' وقد حاول لفت انتباه المتلقي من

خلال توظيف بعض الأساليب كالاستفهام والشرط والتقديم والتأخير لتوضيح وجهة نظره، كم عني بتوظيف أنماط لغوية محفزة للذاكرة والمتمثلة في تكرار هذه الأساليب في رسائله كثيرة، وتكرار بعض أشكال البديع مثل السجع، الجناس مما يوفر لنصوص الرسائل. قيماً إيقاعية تسهم في تقريب المسافة بين نثر الرسائل والشعر[١٧]، فالعناية بالمحسنات البديعية ليست من قبيل العناية بالزخرف اللفظي وإبراز قدرة الأديب البلاغية بل لتحقق هدف المرسل من الخطاب وهو التأثير في المتلقين (المرسل أليه)[١٨].

٢_ **الوظيفة الندائية (Conative):** ويطلق عليها أيضاً الوظيفة الإفهامية، تكشف هذه الوظيفة عن القيمة التداولية للخطاب[١٩] وتخص الطرف الآخر وهو المرسل أليه.

تبرز الوظيفة الإفهامية في المرسلة اللغوية الموجهة إلى المتلقي لإثارة انتباهه أو لطلب القيام بعمل ما، ويدخل ضمنها الجمل الأمريَّة[٢٠]، تتجلى هذه الوظيفة في الرسائل الآتية:

أ_ رسالته (في الشارب والمشروب)«... **فاحفظْ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً، وقد ضمنت لك أوائلها كون أواخرها...**»[٢١].

ب_ رسالته (القيان): «... **وقال الحسن**[٢٢] **يوماً لابن أبي عتيق: هل لك في العقيق؟ فخرج فعدل الحسن إلى منزل حفصة فدخل إليها فتحدّثا طويلاً...**»[٢٣].

ج_رسالته (ذم العلوم ومدحها): «... **سراج لايخبو ضياؤه، ومصباح لا يحزن ذكاؤه، وشهاب لا يطفأ نوره، وبحر لا يدرك غوره، ومعدن لا تنقطع كنوزه، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار...**»[٢٤].

د_ رسالته(تفضيل النطق على الصمت): «... **سأوضّح لك ببرهان قاطع... ومن الحقّ ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوّتي، وملكته طاقتي، لا يستطيع أحد ردّه ولا يمكنه إنكاره وجحده...**»[٢٥].

هـ_ رسالته (في خلق القرآن): «...**وقلت: اكتب إليَّ كتاباً تقصد فيه إلى حاجات النفوس...**»[٢٦].

و_(التربيع والتدوير): «... **فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول... وكما أصبحنا وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك أحسن، وأيّها أجمل وأشكل اللمّة أم خطّ اللحية أم الإكليل أم العصابة أم التاج أم العمامة أم القناع أم القلنسوة وأما قدمك فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى أنها لم تخلق إلاّ لمنبر ثغر عظيم، أو ركاب طرف كريم. وأما فوك فهو الذي لا ندري أي الذي تتفوّه به أحسن...**»[٢٧].

ر_رسالته (في نفي التشبيه)، إذ يقول: «**... فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقّة، وهل المعصية إلاّ مازجه الهوى والشهوة، وهل الطاعة إلاّ ما شابه المكروه والكلفة، وكيف يتكلّف مالا مؤونة فيه وكيف يجحد مالا مرزئة عليه، وكيف يكون شجاعاً من أقدم من الأمن وتكمن في الخوف، أو ليست النار محفوفة بالشهوات، أو ليست الجنة محفوفة بالمكاره، وكيف صاروا في باطلهم أيام قدرتهم أقوى منا في حقنا أيام قدرتنا...**»[٢٨].

تتجلى الوظيفة الانتباهية في الرسائل المختارة من خلال بروز الأساليب الإنشائية الآتية: الاستفهامية، الأمر، النداء والنهي والنفي.

تعددت هذه الأساليب، وتعددت معها الصيغ الموجهة للمتلقين خاصة المتعلقة منها بالاستفهام والأمر والنداء والنفي، قصد لفت انتباه المخاطب من ناحية وللامتثال للطلب من ناحية أخرى، والجدول الآتي يوضح ذلك.

اسم الرسالة	الأسلوب	نوعه
في الشارب والمشروب	**_ فاحفظْ هذه الأبواب...**	أمر
القيان	**_ هل لك في العقيق؟**	استفهام
ذم العلوم ومدحها	**_ لا يخبو ضياؤه،..** **_ لا يحزن ذكاؤه،...** **_ لا يطفأ نوره،...** **_ لا يدرك غوره،...** **_ لا تنقطع كنوزه...**	نفي نفي نفي نفي نفي
تفضيل النطق على الصمت	**لا يستطيع أحد ردّه...** **ولا يمكنه إنكاره وجحده...**	نفي نفي
في خلق القرآن	**اكتب إليَّ كتاباً تقصد فيه إلى...**	أمر
التربيع والتدوير	**فيا شعراً جمع الأعاريض** **ويا شخصاً جمع الاستدارة** **وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك...؟** **وأيّها أجمل وأشكل ؟**	نداء نداء استفهام استفهام

	اللمّة؟ أم خطّ اللحية؟	استفهام
	أم الإكليل ؟	استفهام
	أم العصابة؟	استفهام
	أم التاج؟	استفهام
	أم العمامة؟	استفهام
	أم القناع؟	استفهام
	أم القلنسوة؟	استفهام
	لم تخلق إلاّ لمنبر ثغر...	نفي
	أي الذي تتفوّه به أحسن...؟	استفهام
في نفي التشبيه	**وهل المعصية إلاّ مازجه...؟**	استفهام
	وهل الطاعة إلاّ ما شابه؟ وكيف يتكلّف؟	استفهام
	وكيف يجحد مالا...؟	استفهام
	وكيف يكون شجاعاً...؟ أو ليست النار...؟	استفهام
	أو ليست الجنة محفوفة...؟ وكيف صاروا في...؟	استفهام

طغى أسلوب الاستفهام على البنية اللغوية لنصوص الرسائل المختارة بنسبة٦٧، ٨% وهي تمثل أعلى نسبة مقارنة بالأساليب الإنشائية الأخرى، وقد خرج الاستفهام في بعض المواضع عن معناه الحقيقي ليحقق أغراضاً أخرى كالتعجب من بعض السلوكيات المتناقضة في المجتمع.

تعددت صيغت النهي في الرسائل لتبلغ نسبة ٢،١٤%، وقد عبرت هذه الصيغة عن فلسفة الجاحظ في الحياة.

النداء: وغرضه لفت انتباه المخاطب، وقد ارتبط في مواضع كثيرة بالاستفهام وقدرت نسبته في الرسائل ٧، ١%. وقد ظهر النفي أيضاً بنسبة ١،٧%.

أما صيغة الأمر فقد وردت بنسبة قليلة جداً ٥،٣% وقد وظفه الجاحظ في الرسائل لغرض واحد: الطلب على وجه الإلزام المباشر.

وردت هذه الأساليب وغيرها خفيفة رشيقة قريبة إلى الطبع، بعيدة عن التكلف، وقد صبغت أحداث الرسائل بصبغة تهكمية ساخرة على الرغم من واقعيتها.

٣_**الوظيفة المرجعية (Referentlelle):** وتسمى أيضاً الوظيفة التعيينية أو التعريفية، وتعد أكثر الوظائف اللغوية أهمية في عملية التواصل ذاتها[٢٩]. تتأسس هذه الوظيفة على خلق تبرير أساسي لعملية التواصل، وذلك لأن الهدف من الكلام الموجه إلى الطرف الآخر هو الإشارة إلى محتوى معين[٣٠]. أمّا حضور هذه الوظيفة في رسائله فإنها تتجسد من خلال المواضيع الرئيسة التي تناولتها هذه الرسائل وهي:

- الحجاج بأساليب مختلفة.
- تسفيه بعض الآراء والمذاهب الدينية.
- نقد أساليب الكتابة التي تخلو من الصنعة والتكلف.
- الإشارة إلى بعض الآراء النقدية المتداولة في القرن الثالث الهجري.
- توضيح السبل الوعرة لنيل العلم.
- تصوير سلوكيات وأخلاق الناس عامة.

كل هذه المواضيع تصب في بوتقة واحدة، إذ أنها تمثل تصوير شامل لمظاهر الحياة في العصر العباسي وبالتحديد في القرن الثالث الهجري. فهذه الوظيفة المرجعية تتجلى بمظاهر حياة الجاحظ الاجتماعية أو الدينية، أو الثقافية فتبرز في الرسائل الآتية:

أ_ رسالته (القيان) إذ يقول: «**إن الفروع لا محال راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة بصدورها والموالي تبعٌ لأوليائها وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادة، وبعضها علة البعض، كالغيث علة السحاب والسحاب علة الماء والرطوبة، وكالحب علته الزرع، والزرع علته الحب، والدجاجة علتها البيضة والبيضة علتها الدجاجة، والإنسان علته الإنسان... لا يمنع الناظر من النظر إلى الزرع والغرس والتفسح في خضرته والاستنشاق من روائحه ويسمى ذلك كله له حلاً ما لم يمد له يداً فإذا مدّ يداً إلى مثقال حبة من خردل بغير حقها فعل ما لا يحلّ وأكل ما يحرم عليه...ثم كاتبته تشكر عليه هواه، وتقسم له أنها مدّت الدواة بدمعتها،وبلت السحاءة بريقها،وأنه شجيّها وشجوها في فكرتها، وضميرها، في ليلها ونهارها**»[٣١].

ب_ رسالته(الشارب والمشروب): «**سألت – أكرم الله وجهك، وأدام رشدك، ولطاعته توفيقك، حتى تبلغ من صالح دينك ودنياك منازل ذوي الألباب، ودرجات أهل الثواب_ أن أكتب لك صفات الشارب والمشروب وما فيها من المدح والعيوب...**»[٣٢].

ج_ رسالته (الرد على النصارى): «**الحمد لله الذي منّ علينا بتوحيده، وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه وسياسة عباده، وجعلنا لا نفرّق بين أحد من رسله، ولا نجحد كتاباً أوجب علينا الإقرار به ولا نضيف إليه ما ليس منه، إنه حميد مجيد فعّال لما يريد** »[٣٣].

د_ وفي رسالته (المعاد والمعاش) إذ يقول: «**وخرجت نسيج وحدك، أوحديّاً في عصرك، حكّمت وكيل الله عندك – وهو عقلك_ على هواك وألقيت إليه أزمة أمرك فسلك بك طريق السلامة، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا، وصرفك من صنوف النعم أكثر مما تصرفوا، وربط عليك من نعم الله التي خوّلك ما أطلقه من أيديهم إيثار اللهو وتسليطهم الهوى (على أنفسهم) فخاض بهم سبل تلك اللجج، واستنقذك من تلك المعاطب، فأخرجك سليم الدين، واالمروءة، نقي العرض، كثير الثراء...**«[٣٤].

هـ_ رسالته (فخر السودان على البيضان) إذ يقول: «**... وأطيب ما في المرأة وأشهاه للتقبيل شفتاها، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السواد...**»[٣٥].

و_ رسالته (تفضيل النطق على الصمت) إذ يقول: «**أمتع الله بك وأبقى نعمته عندك... وزعمت أن اللسانَ من مسالك الخنا**[٣٦]**، الجالب على صاحبه البلا، وقلت: إن حفظ اللسان أمثل من التورط في الكلام، وسميت الغبي عاقلاً، والصامت حليماً، والساكت لبيباً، والمطرق مفكّراً، وسميت البليغ مكثاراً والخطيب مهذاراً والفصيح مفرطاً، والمنطق مطنباً، وقلت: إنك لم تندم على الصمت قط وإن كان منك عيّاً، وإنك ندمت على الكلام مراراً وإن كان صواباً. واحتجاجك في ذلك بقول كسرى أنوشِرْوان، واعتصامك فيها بما سار من أقاويل الشعراء والمتسق من كلام الأدباء وإفراطهم في مذمة الكلام، وإطنابهم في محمدة السكوت**»[٣٧].

نوضح مختلف المرجعيات التي تنطوي عليها هذه الأمثلة من خلال الجدول، ولنبدأ بإحصاء الألفاظ ذات الطابع الاجتماعي.

ـ رسالة القيان	ـ رسالة الشارب والمشروب	ـ رسالة الرد على النصارى	ـ رسالة المعاد والمعاش	ـ رسالة فخر السودان على البيضان	ـ رسالة تفضيل النطق والصمت
_الفروع _محال	_وجهك _أدام	_ينفي _شبهة	_نسيج _وحدك	_أطيب _أشهاها	_أمتع _أبقى

_أصولها	_صفات	_خلقه	_أوحدياً	_تقبيل	_نعمته
_الإعجاز	_الشارب	_أوجب	_عصرك	_شفتاها	_المسالك
_بصدورها	_المشروب	_الاقرار	_حكمت	_ضارعتا	_الخنا
_الموالي	_المدح	_نضيف	_وكيل	_السواد	_الجالب
_تبع	_العيوب		_عقلك		_صاحبه
_امور			_هواك		_البلى
_العالم			_أزمة		_حفظ
_ممزوجة			_أمرك		_التورط
_المشاكلة			_سلك		_الغبي
_منفردة			_طريق		احتجاجك
_مضادة			_السلامة		اعتصامك
_الرطوبة			_العاقبة		_افراط
_الماء			_المحمودة		_مذمة
_الغيث			_نيل		_محمدة
_الحب			_اللذات		
_الزرع			_الشهوات		
_الدجاجة			_صرفك		
_البيضة			_صنوف		
_الانسان			_النعم		
_الناظر			_ربط		
_النظر			_خولك		
_الغرس			_أطلقه		
_التفسح			_أيديهم		
_الاستنشاق			_إيثار		
_روائحه			_اللهو		
_يداً			_الهوى		
_أكل			_تسليطهم		

_هواه			_أنفسهم		
_الدواة			_فخاض		
_دمعتها			_سبل		
_بلت			_اللجج		
_ريقها			_استنقذك		
_شجيها			_المعاطب		
_شجوها			_سليم		
_ضميرها			_المروءة		
_ليلها			_نقي		
_نهارها			_ العرض		
			_الثراء		

يمكننا أن نقوم بعملية إحصاء عدد هذه المفردات من خلال الجدول الآتي:

اسم الرسالة	عدد الألفاظ ذات الطابع الاجتماعي
– رسالة القيان	٣٩ لفظة
– رسالة الشارب والمشروب	٨ ألفاظ
– رسالة الرد على النصارى	٦ ألفاظ
– رسالة المعاد والمعاش	٤٠ لفظة
– رسالة فخر السودان على البيضان	٦ ألفاظ
– رسالة تفضيل النطق والصمت	١٦لفظة

ومن أهم النماذج التي يتضح من خلالها المرجع الديني نذكر من الأمثلة السابقة:

_ رسالة القيان: وقد اشتملت على خمسة ألفاظ ذات طابع ديني (مثقال، حبة، خردل، يحلّ، يحرم).

_ رسالة الشارب والمشروب: وتضمنت ثمانية ألفاظ وهي على التوالي (أكرم الله، أدام رشـــدك، ولطاعته، توفيقك، صالح دينك، دنياك، منازل ذوي الألباب، درجات أهل الثواب).

_ رسالة الرد على النصارى: وتضمنت إحدى عشرة لفظة وهي على التوالي (الحمـــد لله، مـــنّ، توحيده، شبهة خلقه، سياسة عباده، رسله، نجحد، كتاباً، حميد، مجيد، فعّال لما يريد، وقد وردت في

رسالة تفضيل النطق على الصمت ألفاظ وعبارات تعبر عن ثقافة الجاحظ ومدى إلمامه بالأساليب الشعرية والنقدية، وقد أحصينا منها في هذا الرسالة اثنتا عشرة لفظة وهي على التوالي (اللسان، الكلام، لبيباً، مفكراً، البليغ، الخطيب، الفصيح، المنطق، المطنب، عيّاً، الشعراء، الأدباء).

انتقى الجاحظ – للتعبير عن واقع مجتمعه– ألفاظ مشحونة بدلالات ذات أبعاد إنسانية واجتماعية ودينية وثقافية، فنجده مثلاً في رسالته المعاد والمعاش يختار من مجتمعه اللغوي مفردات تعبر عن لون من ألوان الحجج الدينية، فالرسالة يوجهها الجاحظ إلى (أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد) عندما خلف أباه في القضاء في خلافة المتوكّل العباسي، يرشده فيها إلى أدب التعامل مع الناس وسياسة أمورهم، وقد بدأها بالحجة، وهي حجة (بمقام المدح والثناء والتمجيد) من (أبي دواد) إذ يقول (خرجت نسيج وحدك أوحديّاً في عصرك)، ثم يأتي بحجة عقلية في قوله(حكّمت وكيل الله عندك – وهو عقلك– وألقيت إليه أزمة أمرك) أي أن الراشد والحكيم هو من يحكم عقله في أموره كلها.

وبعد هاتين الحجتين يأتي بحجة أخرى مرجعها أيضاً العقل في قوله «فسلك بك طريق السلامة وأسلمك إلى العاقبة المحمودة...» أي تحكيم العقل يسلك بالمرء طريق السلامة، ويسلمه إلى العاقبة المحمودة.

ونستطيع القول إن العقل في النص هو المرجع الأول للحجة، إذ سمّاه الجاحظ بـ(وكيل الله) بغرض تقوية تلك الحجج، فهو لا يمجد أي عقل، ولا ينطلق من أي عقل، وإنما ينطلق من عقل مسؤول، يتلقى معارفه من الله تعالى، إذ هو وسيط بين الله تعالى والإنسان. فالجاحظ لا يلقي الكلام على عواهنه، ولا يتركه بغير حجة أو شاهد، وقد لجأ إليها الجاحظ في عصره، لكثرة الفرق الدينية.

وبما أن أغلب رسائله تدور حول الظواهر الاجتماعية والدينية، فأن هذا يؤكد مدى هيمنة الطابع الاجتماعي على رسائله التي يمكن أن ننظر أليها على أنها سجل اجتماعي يضم بين دفتيه مختلف مظاهر حياة الناس في القرن الثالث الهجري، إلا أنها عبرت عن أغراض أخرى كالمدح والوصف والنقد الأدبي والوعظ والحجاج وأحوال الزمان والفكاهة.

٤_ **وظيفة إقامة الاتصال (Phatique)**: ويطلق عليها الانتباهية، وتتأسس هذه الوظيفة على مدى حرص المرسل على إبقاء الاتصال مع الطرف الثاني (المرسل إليه) عن طريق ألفاظ وتعابير تتيح للمرسل الاستمرار في الاتصال أو قطعه[٣٨].

يتخلل النسيج اللغوي للرسائل ألفاظ وأساليب بارعة تعمل على شد انتباه المتلقي واستمالته بشتى الطرق إلى عالم النص، فكم من أنماط محفزة للذاكرة ترددت في كثير من الرسائل، وكم من

أوصاف أجاد نحتها، وكم من ألغاز وأحاجي وسخرية وفكاهية ضمنها كلامه حتى يفكه القارئ ويستميله بشتى الوسائل، وأكثر من هذا وذاك ما الذي جعل هذا النوع يستمر بعده فينسج على منواله الكثير من الأدباء في المشرق العربي ومغربه؟

في بعض الرسائل نجد الجاحظ يغرق في الوصف ويتفنن فيه ببراعة فائقة، فإذا وصف الأكل يعطيه من الأوصاف ما يجعل الأفواه تتحلب والشفاه تتملظ، والأكباد تتقد والقلوب ترتفع، وإذا وصف الخمر أضفى عليها من الأوصاف ما يجعل منها ريحانة النفس ومصباح الفكر تحي الميت وتشفي الأكمه والأبرص، أنه يضفي عليها من الألفاظ العذبة المسكرة، والجمل الموسيقية المرنمة ما يطرب الندامى ويعجب الندمان، ونجد إلى جانب هذه الأوصاف البديعة والمعاني الرقيقة الألغاز والأحاجي، التي يعبر بها عن بعض الآراء النقدية المتداولة في عصره. كما في (رسالة تفضيل النطق على الصمت) «**وإني سأوضح؛ لك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحق ما يقهر، بقدر ما أنت عليه معرفتي وبلغته قوتي وملكته طاقتي بما لا يستطيع أحد ردّه، ولا يمكنه إنكاره وجحده، ولا قوة إلاّ بالله وبه أستعين، وعليه أتوكل وإليه أنيب. إني وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة، منها أنك لا تستطيع العبارة عن حاجتك والإبانة عن مآربك إلاّ باللسان. وهذان في العاجل، والآجل مع أشياء كثيرة لو ينحوها الإنسان لوجدها في المعقول موجودة، وفي المحصول معلومة، وعند الحقائق مشتهرة، وفي التدبير ظاهرة (...) ولو كان الصمت أفضل والسكوت أمثل لما عرف للآدميين فضل على غيرهم ولا فرق بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان وأخياف الخلق (...) ولم نر الصمت – أسعدك الله – أحمد في موضع إلاّ وكان الكلام فيه أحمد، لتسارع الناس إلى تفضيل الكلام، لظهور علته، ووضوح جليّه ومغبة نفعه. وقد ذكر الله عز وجل في قصة إبراهيم** عليه السلام **حين كسر الأصنام وجعلها جذاذاً، فقال حكاية عنهم ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ، فكان كلامه سبباً لنجاته، وعلة لخلاصه، وكان كلامه عند ذلك أحمد من الصمت غيره في مثل ذلك الوضع (...) ولولا الكلام لم يعرف الفاضل من المفضول في معانٍ كثيرة، لقول الله عز وجل في بيان يوسف** عليه السلام **وكلامه عند عزيز مصر لما كلمه فقال: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ فلو لم يكن يوسف عليه السلام أظهر فضله بالكلام، الإفصاح بالبيان مع محاسنه المونقة وأخلاقه الظاهرة، وطبائعه الشريفة، لما عرف العزيز فضله، ولا بلغ تلك المنزلة لديه (...) والكلام _أبقاك الله_ سبيل التمييز بين الناس**

والبهائم، وسبب المعرفة لفضل الآدميين على سائر الحيوانات، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ كرمهم باللسان وحملهم بالتدبّر»[٣٩].

في هذا النص يحشد الجاحظ طاقات حجاجية هائلة، سواء أ كانت نقلية أم عقلية أم بلاغية، وهذه الحجج مبنية على ملاءمة ذلك المقام للموضوع أو الغرض الذي يؤم الجاحظ إليه وهو تفضيل النطق على الصمت، وهذا يرجع إلى أن الحجج ليست باعتباطية كيف ما اتفق معها الجاحظ بل جاءت عن قصد أو دراية وأدت دور الفاعل. فالجاحظ هنا يفضل الكلام على الصمت، بدليل أن الكلام ضروري للإبانة عن النفس والتعبير عن الحاجات الكثيرة التي تكثر لدى الإنسان، ومنها أن الكلام هو المزية التي ينماز بها الإنسان عن الحيوان والجماد، والجاحظ لم يكتف بهذه الأدلة العقلية بل لجأ إلى الحجج والأدلة النقلية إذ إنه استدل من القرآن الكريم بآيات ورد فيها فضيلة النطق على الصمت، فالكلام الذي تفوّه به إبراهيم عليه السلام لدى تحطيمه الأوثان هو الذي نجّاه، والكلام الذي تفوّه به يوسف عليه السلام لدى عزيز مصر هو الذي لفت إلى ذكائه وفطنته فقرّبه منه وأكرمه، وهذا التأكيد البلاغي في الحجج يريد الجاحظ أن يوظف مهارته الكلامية والبيانية في إثبات ما يؤمن به من عقائد من جهة، ويردّ على خصومهم بالأسلوب الكلامي ذاته من جهة أخرى، مما جعلهم عرضة لنقد خصومهم، إذ اتّهم بالإفراط في الكلام ولاسيما – المتكلمين_ والمغالطة به وتصوير الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق. ومن هنا جاء رد الجاحظ عليهم ضمنياً في هذه الرسالة، وقد اتخذ مقام المفاخرة طريقاً لبيان أهمية الكلام المبين في الحياة بعامة وأهميته في شكر المنعم، وفي بيان الحجة في مقام التخاطب، وطريقاً لنقد من لا يحسنون الكلام في الإبانة عن حجتهم.

ونستطيع إن نقول أن الجاحظ في هذا النص يعبر عن عقيدته في الكلام وعن النسق الثقافي الذي يشكل شخصيته الفكرية والآيديولوجية وأن هذا النص يضمر حالة التوتر والصراع المذهبي بين المعتزلة وخصومهم، إذ إن المعتزلة يهتمون بالبيان بوصفه جزءاً من عقيدتهم، فإذا كان خصومهم يتوقفون عن الكلام في بعض القضايا لعدم وضوحها لديهم أو لعدم وجود دليل يدعم كلامهم فيها، فإن المعتزلة استعانوا على ذلك بالعقل وبالفلسفة وراحوا يتكلمون في كل شيء ويحتجون بالكلام على كل شيء، ومن هنا فإن الكلام صار سمة فيهم وجزءاً من عقيدتهم، لهذا فالصمت عند الجاحظ عيب وهو صفة البهائم والجمادات، أما الكلام فهو صفة الآدميين العقلاء، إذن فالشاهد يحمل طاقة حجاجية وأخرى تخييلية وأخرى إفهامية.

وتتجلى أيضاً الوظيفة الانتباهية في رسائل الجاحظ ظاهرة التكرار وهي ظاهرة تشد انتباه القارئ على مستوى الرسالة الواحدة، وهذه الظاهرة هي أنماط محفزة للذاكرة. فنجده يردد ويكرر صيغة (أسلوب المدح) كما في رسالته (مدح الكتب) : «**عبت الكتاب، ونعم الذخيرة والعقدة، ونعم الجليس والعمدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدفين**»[٤٠]. نلحظ البعد التكراري واضحاً في أسلوب المدح إيقاعاً وتأكيداً على المضمون، إذ كرر الجاحظ هذا الأسلوب سبع مرات مما زاد من حدة الإيقاع، فضلاً عن ذلك خلق رهبة خاصة لقارئ النص يساعد على تعديته وتقبله النفس.

والجاحظ استخدم في بناء أسلوب رسائله الكثير من الأوصاف والتشبيهات والعبارات الجاهزة ذات القيمة الأدبية العالية، وتكثر صور التكرار والتناص الداخلي بين الرسائل، كما جاءت هذه الرسائل موزعة بين الأساليب الإنشائية والخبرية.وقد وردت الأساليب الخبرية لغرض الوصف وسرد الوقائع وشرح بعض الآراء النقدية أو المذهبية ومن أمثلتها ما برز من أساليب القصر في الرسائل الآتية:

أ- رسالة القيان، إذ يقول: «**إن الفروع لا محال راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة بصدورها والموالي تبعٌ لأوليائها وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادة، وبعضها علة البعض**»[٤١].

ب- رسالة (المعاد والمعاش) إذ يقول: «**وخرجت نسيج وحدك، أوحديّاً في عصرك، حكّمت وكيل الله عندك – وهو عقلك_ على هواك وألقيت إليه أزمة أمرك فسلك بك طريق السلامة، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا**»[٤٢].

ت- رسالته (فخر السودان على البيضان) إذ يقول: «**... وأطيب ما في المرأة وأشهاه للتقبيل شفتاها، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السواد...**»[٤٣].

ث- رسالته (تفضيل النطق على الصمت) إذ يقول: «**وقلت: إن حفظ اللسان أمثل من التورط في الكلام، وسميت الغبي عاقلاً، والصامت حليماً، والساكت لبيباً، والمطرق مفكّراً، وسميت البليغ مكثاراً والخطيب مهذاراً والفصيح مفرطاً، والمنطق مطنباً، وقلت: إنك لم تندم على الصمت قط وإن كان منك عيّاً، وإنك ندمت على الكلام مراراً وإن كان صواباً**»[٤٤].

نلحظ من خلال ما تقدم أن الأسلوب الخبري قد طغى على الرسائل، فقد وردت الجمل الفعلية بنسبة ٨١.٤٨% ووردت الجمل الاسمية بنسبة ١٨.٥١%، وبذلك يكون هذا

النوع من الأسلوب قد وظف لشرح فلسفة الجاحظ في الحياة، وسرد الأخبار ووصف المكان والزمان والأشخاص وكل ما يتعلق بمظاهر الحياة في البيئة العباسية، وقد برزت جلية في هذه الوظيفة (الانتباهية)، لما تتوفر عليه من سحر في البلاغة وجودة في نحت العبارات والمعاني، وبما تشمل عليه من جمل موسيقية تطرب لها النفس، وبما تتضمنه من قصص مشوقة ومسلية تدفع عن النفس السأم والملل.

٥ – وظيفة ما وراء اللغة (المعجمية) (Metalinguistique):

تبرز هذه الوظيفة في المرسلات اللغوية التي تكون فيها اللغة مادة الدراسة، فتعمل على وصف اللغة ذاتها من خلال ذكر عناصرها والتعريف بمفرداتها[٤٥]، وتتبدى هذه الوظيفة في رسالته (ذم العلوم ومدحها) واصفاً القرآن الكريم: «**حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال والمنزل، والحرام المفضل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقوم به الفروض والنوافل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يحزن ذكاؤه، وشهاب لا يطفأ نوره، وبحر لا يدرك غوره، ومعدن لا تنقطع كنوزه، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ومرشد يدل على طريق الجنة والنار، وزاجر يفسد عن المحارم ويجبر يوم التحاكم...**»[٤٦].

إذ نلاحظ أن لغة الرسائل أخذت على عاتقها مهام تفسير ماغمض من مفرداتها، وتفصيل ما أجمل من عباراتها، ففسرت نفسها بنفسها إذ نجد في النص تفصيل ما هو مجمل فنلاحظ المفردات في سياق وصف القرآن الكريم بصفات عظيمة، والذي ساعد على هذا التفصيل السجع الحاصل في النص الذي يوقظ انتباه المتلقي ليصغي لوقعها ويدرك دلالتها، فالجاحظ قصده التأثير وشد المتلقي تجاه النص، وجميع هذه السجعات المتوازية وقعت موقع التفصيل المجمل لـ(وصف القرآن) وهذا التفصيل كان متلائماً مع حرف الروي (الدال واللام والهاء) المتلائم والأثر الناجم عن وقع المتجانس في النفس. أضف إلى ذلك غلبة الطبيعة العلمية على أسلوبه، فهو مشحون بألوان مختلفة من النظريات العلمية والآراء الكلامية والمذاهب الفلسفية، وغيرها مما ساد وانتشر في عهد الجاحظ من أنواع المعارف الإنسانية، فهو على الرغم من ذلك، فإننا نرى الجاحظ يعالج هذه الموضوعات بروح فني خالص، ويعرضها بأسلوب أدبي جميل.والذي تقوم به اللغة من توضيح وتفسير ما غمض من المفردات هو الذي يبقى جسر التواصل ممتداً بين مرسل الخطاب ومتلقيه فتكون الرسالة واضحة في ذهن الطرف الآخر فيسهل عليها بذلك فك شفراتها وفهم مقاصد مرسلها.

٦_ **الوظيفة الشعرية (Poetiqe)**: وتسمى الوظيفة الإنشائية، تتمحور هذه الوظيفة على المرسلة من حيث هي نظام قائم بذاته[٤٧]، وهي وظيفة أساسية للغة لما تضفيه من ديناميكية وحيوية على اللغة نفسها وبدونها تصبح المرسلة اللغوية جسم ميت لا حراك له[٤٨].

تظهر هذه الوظيفة في كل رسائله إذ لا تكاد تخلو منها رسالة، ولعل السمة البارزة في هذه النصوص هي طابعها البلاغي، إذ تكمن بلاغتها في لغتها، إنها لغة أديب بارع، وفنان حاذق بصنعته، يتلاعب بالألفاظ كيفما يشاء بحيث يصيب المعنى من أقرب مرمى، ناهيك عن الإيجاز في الأسلوب فتأتي جملة مقطعة تقطيعاً متوازناً في الطول والإيقاع. من ذلك قوله: «**ولم أعجب من دوام ظلمك، وثباتك على غضبك، وغلظ قلبك، ودورنا بالمعسكر متجاورة، ومنازلنا بمدينة السلام متقابلة...**». أمَّا من ناحية البيان والبديع اللفظي فالرسائل مليئة بالتشابيه والاستعارات والكنايات والجناس والسجع والطباق والمقابلة، نحاول فيما يلي أن نمثل لكل لونٍ منها.

_التشبيه: في رسالته (سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف): «**وكأنّ أزهارها دراهم ولآل منثورة عليهم وورودهم وشقائقهم دنانير ويواقيت مبذولة لهم، وكأنّ نباتها زبرجد ومينا**»[٤٩].

_الاستعارة: رسالته (مدح الكتب والحث على جمعها): «**.. ومن لك بواعظ ملهٍ وببارد حار، ومن لك بطبيب أعرابي، وبروميّ هندي وبفارسيّ يونانيّ وبقديم مولّد وبميّت ممتّع به، وبشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب، والحسن وضده، وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تقلّب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلاّ بما تهوى، آمن من أرض، وأكتم للسر من صاحب السر...**»[٥٠].

_ الكناية: في رسالته (ما بين العداوة والحسد): «**وكنت امرأً قليل الحساد، حتى اعتصمت بعروتك، واستمسكت بحبلك، واستذريتُ[٥١] في ظلّك، فتراكم عليّ الحساد وازدحموا، ورموني بسهامهم من كلّ أوبٍ وأفق، وتتابعوا عليّ تتابع الدّبْرِ[٥٢]، على مشتار العسل، ولئن كثروا لقد كثر بهبوب ريحك أخواني وبنصرة أيامك وزهرة دولتك خُلاّني...**»[٥٣].

_الجناس: في رسالته مدح الكتاب: «**وعاءٌ مليء علماً وظرفٌ حُشيَ ظرفاً**»[٥٤].

_السجع: في رسالته (ذم العلوم ومدحها): «**حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال والمنزل، والحرام المفضل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقوم به الفروض والنوافل...**»[٥٥].

_الطباق: «**ولكن اشتدّ عجبي منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نتاج، وصناعتك جودة الخط، وصناعتي جودة المحو، وأنت كاتب وأنا أمّي، وأنت خراجي وأنا عشري، وأنت زرعيٌّ وأنا نخليّ...، وأنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية، وأنت طويل وأنا قصير، وأنت أصلع وأنا أنزع، وأنت صاحب براذين، وأنا صاحب حمير، وأنت ركين وأنا عجول...**»[٥٦].

_المقابلة: في رسالته (في نفي التشبيه)، إذ يقول: «**... فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقّة، وهل المعصية إلاّ مازجه الهوى والشهوة، وهل الطاعة إلاّ ما شابه المكروه والكلفة، وكيف يتكلّف مالا مؤونة فيه وكيف يجحد ما لا مرزئة عليه، وكيف يكون شجاعاً من أقدم من الأمن وتكمن في الخوف، أو ليست النار محفوفة بالشهوات، أو ليست الجنة محفوفة بالمكاره، وكيف صاروا في باطلهم أيام قدرتهم أقوى منا في حقنا أيام قدرتنا**»[٥٧].

برزت الوظيفة الشعرية في رسائل الجاحظ من خلال هذه الأساليب البيانية والمحسنات البديعية، مما أضفت على الأسلوب عذوبة ورقة وحلاوة، وقد احدث السجع رنة موسيقية تتعشقها الآذان وتطرب لها النفوس.

ولا نغفل في هذا الرسائل دور الأساليب الإنشائية من نداء وأمر واستفهام وما دلت عليه من تعجب ودعاء، ووعظ، ونصح وإرشاد، التي تعمل على شد انتباه المتلقي وإقحامه في عالم النص الذي لا يخلو من روح الفكاهة والضحك والتسلية عن طريق الأحاجي، دون أن ننسى ما تتضمنه هذه النصوص من غايات تعليمية، أنها ذخيرة لغوية وموسوعة شاملة لكل فنون القول من نثر وشعر وقصص وطرائف ونكت.

إذن إنَّ النَّموذج التَّواصلي عند (ياكبسون)؛ مبنيٌّ على أساس نظام التَّواصل القائم على المرسِل المنجز للكلام، والمرسَل إليه مستقبل الرِّسالة، والرِّسالة ذاتها تحتاج إلى مرجع، وقناة اتِّصال، ورامزة مشتركة كلِّيّاً أو جزئيَّاً بين المرسل والمرسَل إليه تسمح بإقامة التَّواصل والحفاظ عليه[٥٨].

وممَّا تقدَّم يمكننا أن نقول أن رسائل الجاحظ موجهة لكل قارئ في كل زمان وفي كل مكان نظراً لما تتصفه به لغتها من حيوية وديناميكية. إذ يظهر أنَّها خطابٌ لغويٌّ تواصليٌّ، تهيمن فيه الوظيفة الشِّعريَّة من دون غياب الوظيفة الإبلاغيَّة الأساسيَّة للُّغة، وهذه الهيمنة لا تعني- مطلقاً- إهمال باقي الوظائف في أثناء الدَّرس والتَّحليل، فهيمنة الوظيفة المرجعيَّة لا تلغي الإحالة إنَّما تجعلها متوارية خلف الوظيفة المهيمنة[٥٩] ممَّا يؤدِّي إلى غموض ينجم عن مفارقة الدَّوالّ،

وعن تفاعل عناصر اللُّغة العضويّ الَّذي تبتعد بموجبه الألفاظ عن الدّلالة الوضعيَّة الأولى (الدّلالة التَّصريحيَّة)؛ لتقترب من الدّلالة الثَّانية (الدّلالة الإيحائيَّة).

النتائج:

وبعدما أسقطنا مفاهيم نظرية التواصل لجاكبسون على رسائل الجاحظ المختارة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

١. قدمت الدراسة تحليلاً لنصوص مختارة من رسائل الجاحظ على مالها من خصوصية باعتبارها نصاً عربياً قديماً، كما حاولنا الكشف عن خيوط النظرية التواصلية وكيفية انصهارها داخل نصوص التراث لاسيما نص الجاحظ.

٢. لم تقف نظرية الاتصال عند حدود النص والنظر في مكوناتها السطحية والقواعد التي تحكم هذه المكونات، بل وسعت في مجال وظائفها لتنظر فيما هو خارج النص، وبالتحديد الاهتمام بمنتج النص ومتلقيه باعتبارهما شريكان في بناء النص، وكذا النظر في السياقات التي أنتجتها.

٣. تميز النسيج اللغوي للرسالة، من براعة في السبك وجودة في نحت الألفاظ، تكشف عن عبقرية ناظمها، حيث تخرج إلى غايات تعليمية ودلالات أخلاقية لا تخلو من روح الفكاهة والمتعة والتسلية، وهذه العوامل وغيرها هي التي جعلت هذا النوع الأدبي يستمر قروناً عدة، وينسج على منواله الكثير من الأدباء في المشرق العربي ومغربه.

٤. نحت الدراسة إلى امتحان نصوص رسائل الجاحظ في ضوء آليات النظرية التواصلية، مستعيدةً السؤال الذي ظل طاغياً في الخطاب النقدي العربي المعاصر ما هي حدود التعاطي مع سيل المناهج والنظريات النقدية الغربية وإخضاع النصوص العربية – التراثية خصوصاً_ إليها.

٥. سعت الدراسة إلى تعميق الفهم العام للنصوص للرسائل ليس باعتبارها نصوصاً لغوية فحسب، ولكن باعتبارها مجالاً خصباً للتفاعل بين منتج هذه النصوص ومتلقيها، وإبراز مدى تفاعلها مع السياقات الثقافية والاجتماعية التي أسهمت في إنتاجها.

٦. وبإسقاطنا النظرية على نصوص رسائل الجاحظ وجدنا أن الأساليب الخبرية وردت بكثرة، وهذا يتلاءم مع طبيعة الرسائل ذات الطابع السردي، وإلى جانب هذا لمسنا أن للأساليب الإنشائية حضوراً واضحاً وقد تصدرها الاستفهام ثم النهي والنداء والنفي والأمر، وقد خرجت

عن معناها الحقيقي لتفيد أغراضاً أخرى يحددها السياق منها: التعجب والنصح والإرشاد والدعاء والوعظ.

٧. أن من أبرز الوظائف الخطابية هي الوظيفة الشعرية التي عبرت عن الخصائص الجمالية للرسائل من استعمال للكنايات والاستعارات والتشابيه، وأشكال البديع من طباق وجناس وسجع التي أكثر منها الجاحظ.

الهوامش

(١) يرى أندريه مارتينيه أن الوظيفة التواصلية للغة هي الوظيفة الأساسية، بالإضافة إلى ما تؤديه من وظائف أخرى، ينظر: المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ٢٠٠٣: ١٠٤.

(٢) مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ميشيال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٨: ١٧١–١٧٢.

(٣) علم اللُغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة: د.يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النَّص العربي: د. مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربيَّة، د.ت: ٣٨.

(٤) ينظر: معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النَّقديَّة الحديثة)، عبد اللُّه إبراهيم الغانمي، علي سعيد عَواد ط٢، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، ١٩٩٦م: ٤٤.

(٥) استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظاهر الشهري، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط١: ٤٥.

(٦) مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة: ١٧٢.

(٧) المِخرف: بكسر الميم: زبيل صغير يغترف فيه أطايب الرطب وبفتحها: الحائط من النخل.

(٨) رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط١، ١٩٧٩م. ١/٢٣٠–٢٤٠.

(٩) القَصر بالتحريك: جمع قصرة، وهي أصل العنق.

(١٠) الزابج: بكسر الباء وفتحها، جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين.

(١١) رسائل الجاحظ: ١/١٨–١٩.

(١٢) رسائل الجاحظ: ١/٢٨٨.

[١٣] لغة الشعر بين جيلين، إبراهيم السامرائي، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م: ٣٨.

[١٤] ينظر: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني دراسة مقارنة محمد عباس، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ٤٢.

[١٥] شرح المفصل، ابن يعيش، دار صادر، مصر، د.س، د.ط: ١٥٦/٨.

[١٦] التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، موسى ربابعة جامعة اليرموك، الأردن، مؤتمر النقد الأدبي، ١٠-١٣ تموز، ١٩٨٨: ٣١.

[١٧] السرد والشفاهية، دراسات في مقامات بديع الزمان الهمذاني: ١٦٨.

[١٨] استراجيات الخطاب: ٤٨.

[١٩] المصدر نفسه: ٤٧٦.

[٢٠] مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة: ١٧٢.

[٢١] رسائل الجاحظ: ٢٣١/٣.

[٢٢] عتيق الأولى كنية لرجل، أما الثانية (عقيق) وادٍ عليه أموال أهل المدينة فيه عيون ونخل، ينظر: هامش رسائل الجاحظ: ١٥٣/٢.

[٢٣] رسائل الجاحظ: ١٥٣/٢.

[٢٤] رسائل الجاحظ: ٢٣١/٣.

[٢٥] رسائل الجاحظ: ٢٣٣/٤.

[٢٦] رسائل الجاحظ: ٢٨٥/٣.

[٢٧] رسالة التربيع والتدوير، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حققها وشرحها: فوزي عطوي، الشكرة اللبنانية للكتاب، بيروت- لبنان، ١٩٦٩م، د.ط.: ٥٧.

[٢٨] رسائل الجاحظ: ٢٧٩/٢.

[٢٩] المدارس اللسانية المعاصرة: ١٠٠.

[٣٠] مباحث في النظرية اللألسنية وتعليم اللغة: ١٧١-١٧٢.

[٣١] رسائل الجاحظ: ١٤٦/٢، وللمزيد من الأمثلة ينظر: ٣٣/١، ٣٣٩، ج١٢٠/٣، ١٢٧، ج٩٥/٤، ٩٦، ٢٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٤.

[٣٢] رسائل الجاحظ: ٢٦١/٤، وللمزيد ينظر: الصفحات: ج٥٨/١، ١٠٥، ١١٧، ١١٨، ١٤٠.

[٣٣] رسائل الجاحظ: ٢ /١٤٦.

(٣٤) رسائل الجاحظ: ٩٢/١.

(٣٥) رسائل الجاحظ: ١٩٠/١.

(٣٦) الخنا: الفحش، يقال خنا في منطقه يخنو، مقصور.

(٣٧) رسائل الجاحظ: ٢٢٩-٢٣٠.

(٣٨) ينظر: قضايا الشعرية، رومان ياكبسون: ٣٠.

(٣٩) رسائل الجاحظ: ٣٣١/٤-٣٣٢.

(٤٠) رسالة مدح الكتب والحث على جمعها، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: ابراهيم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد، ١٩٦١م: ٣٣٥-٣٣٩.

(٤١) رسائل الجاحظ: ١٤٦/٢.

(٤٢) رسائل الجاحظ: ٩٢/١.

(٤٣) رسائل الجاحظ: ١٩٠/١.

(٤٤) رسائل الجاحظ: ٢٢٩-٢٣٠.

(٤٥) مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة: ١٧٣.

(٤٦) رسائل الجاحظ: ٢٣١/٣

(٤٧) مباحث في النظرية اللألسنية وتعليم اللغة: ١٧٣.

(٤٨) المدارس اللسانية المعاصرة: ١٠٠.

(٤٩) رسالة سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (دار الرائد العربي، بيروت- لبنان ١٩٨٢): ١٥.

(٥٠) رسالة في مدح الكتب والحث على جمعها: ٣٣٦.

(٥١) استذرى بالشجرة/استظل بها وصار في دفئها، واستذرى بفلان: التجأ إليه، وفي الأصل (واستذرأت).

(٥٢) تتابع على الشيء: تهافت فيه وأسرع وتساقط، وفي الحديث: ما يحملكم على أن تتابعوا في الكذب، كما يتتابع الفراشيّ في النّار" وفي الأصل (تتابعوا على تتابع)، والدبر: جماعة النحل.

(٥٣) رسائل الجاحظ: ٣٦٧/١.

(٥٤) ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني: د. أنعام فوال عكاوي، مراجعة: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٩٦: ٤٧٥.

(٥٥) رسالة مدح الكتب والحث على جمعها: ٣٣٥.

(٥٦) رسائل الجاحظ: ٣٦٧/١.

(٥٧) رسائل الجاحظ: ٢٨٨/١.

(٥٨) ينظر: قضايا الشِّعريَّة: ٢٤.

(٥٩) ينظر: المصدر السابق: ٥١.

المصادر

١. الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني دراسة مقارنة، محمد عباس، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢. استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظاهر الشاهري، دار الكتب الوطنية، بنغازي، لبيا، ط١.

٣. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦م.

٤. التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، موسى ربابعة جامعة اليرموك، الأردن، مؤتمر النقد الأدبي، ١٠ – ١٣ تموز، ١٩٨٨.

٥. رسالة التربيع والتدوير، الجاحظ، حققها وشرحها: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت– لبنان، ١٩٦٩م، د.ط.

٦. رسالة سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف: الجاحظ، دار الرائد العربي. بيروت– لبنان ١٩٨٢م.

٧. رسالة مدح الكتب والحث على جمعها لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثامن، ١٩٦١م/١٩٨١هـ.

٨. رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط١، ١٩٧٩م.

٩. شرح المفصل، ابن يعيش، دار صادر، مصر، د.س، د.ط.

١٠. علم اللُغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النَّص العربي: د. مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربيَّة، د.ت.

١١. قضايا الشعرية، رومان ياكوبسون، ترجمة: محمد الولي ومبارك رضوان، ١٩٨٠م.

١٢. لغة الشعر بين جيلين، إبراهيم السامرائي، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

١٣. مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ميشيال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٨.

١٤. المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
١٥. معجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني: د. أنعام فوال عكـــاوي، مراجعـــة: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط٢، ١٩٩٦.
١٦. معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النَّقديَّة الحديثة)، عبد اللّٰه إبراهيم الغانمي،. علي سعيد عَواد ط٢، المركز الثَّقافيّ العربيّ، الدَّار البيضاء، ١٩٩٦م.